تفكير الأمير عبد القادر بين الإيديولوجية والحداثة

أ/ لعوج لصرالدين: أستاذ مساعد – أ – قسم التاريخ، جامعة الجيلالي ليابس، سيدي بلعباس

ساهمت العديد من مؤلفات السير الذاتية العربية والأجنبية1لحياة "الأمير عبد القادر الجزائري" في التعريف به كمعلم من معالم الإنسانية، وكشفت عن مكامن العبقرية الحقيقية في شخصه، باعتباره عالما مجاهدا، وزعيما سياسيا محنكا، وعسكريا فارسا مغوارا، وفقيها متصوفا ناسكا، وشاعرا أديبا بارعا، ودبلوماسيا ناجحا، وشهد له الكثير من معاصريه ومن الباحثين والدارسين بمواصفات المفكر المصلح والقائد السياسي والعسكري الفذ، الذي يتميز بالقدرة والحنكة والبطولة والبراعة وكل ما يمكن من قيادة الجماهير وتوجيهها والتأثير فيها، باختصار شديد مثل الشخصية الجزائرية الأكثر كاريزمية التي تمثل الزعامة الملهمة القائدة والفاعلة .

اخترت إثارة الحديث عن مفهوم «الإيديولوجية» و« الحداثة » في تفكير "الأمير عبد القادر" لتحقيق هدفين:2

1) البحث عن وجود نزعة إيديولوجية حديثة تهدف إلى تسخير فكره النظري الغزير لتغيير – قبل كل شيء – الواقع الجزائري المتأزم سياسيا واجتماعيا واقتصاديا وثقافيا، بل وحضاريا بعد الغزو الفرنسي الاستعماري سنة 1830م، وفرض واقع جديد أفضل.
2) إخراج دراسة التفكير الإصلاحي للأمير عبد القادر" من حيز المونوغرافات الكلاسيكية الوصفية، والارتقاء بها إلى مستوى التحليل النقدي العام الذي يدرج تفكير الأمير ضمن التيار الفكري الإنساني، حيث تساءلت في البداية:

- هل كان "الأمير عبد القادر" مجرد فقيه يفكر تفكيرا فقهيا على طريقة فقهاء الإسلام، ينحو منحى التشريع والفتوى في مختلف النوازل من مسائل العبادات والمعاملات التي يتعرض لها الجزائري المسلم في حياته اليومية بصورة كاملة – كما يظهر من خلال كتابه " المواقف في بعض إشارات القرآن إلى الأسرار والمعارف"- ؟
- هل كان "الأمير عبد القادر " فيلسوفا يصنع فكرا فلسفيا مجردا له صيغة تحليلية تفسيرية لمختلف الأشياء، قصد منها معرفة حقائقها معرفة برهانية محايدة، وفق منهج فلسفي معين – كما يظهر من خلال كتابه " المقراض الحاد" ؟
- وهل كان "الأمير عبد القادر" مجرد متصوف ناسك وأديب بارع ساهم في غنى المكتبة العربية الإسلامية؟
- أم كان " إيديولوجيا" صاغ تفكيره الديني العملي الإصلاحي الواقعي سياسيا واجتماعيا في قالب إيديولوجية شاملة جاهزة للتطبيق قصد تجديد المجتمع الجزائري وتغيير بناه الأساسية ومؤسساته السياسية؟

لا يمكن التأكد والإجابة على هذه التساؤلات لحسم مادة هذا التفكير، إلا بتحديد المفهوم المقصود من الإيديولوجية والحداثة، والبحث عن عناصر الإيديولوجية ومظاهر الحداثة في أفكاره وممارساته الخاصة.

- ❖ فما معنى الإيديولوجية ؟ وما معنى الحداثة؟
- ❖ وما هي عناصر الإيديولوجية في تفكير " الأمير عبد القادر؟
- ❖ وما هي مظاهر الحداثة في تفكير الأمير عبد القادر؟
- ❖ وهل نجح الأمير عبد القادر في صياغتها لتصبح مرجعية للإيديولوجية الوطنية في مواجهة

الإيديولوجيات الأوروبية الغازية: الاستعمارية، الفاشية، الليبرالية، الاشتراكية والشيوعية وغيرها...؟

أصبح مصطلح " إيديولوجية" من كثرة التداول والشيوع بديهية لا تحتاج إلى إيضاح، لكنه بالمقابل غدا من العسير الاتفاق على تعريف واحد أمام مجموعة من التعارف المتباينة، والمواقف المختلفة منها: بين من ينكرها أصلا على الجزائريين باعتبارها لصيقة بالفكر الماركسي دون سواه3وبين من يتجنب الخوض فيها أو استعمالها بدعوى أنها تؤدي إلى التعصب خاصة بعد نهاية عصر الإيديولوجيات في ظل العولمة4، ويرتبط تعريف الإيديولوجية ارتباطا وثيقا بمن يطرحه ويدافع عنه، ولهذا لا يكون كل حديث حول تعريفها حياديا وبشكل موضوعي5 ، واستعمل المدلول اللغوي الاشتقاقي لكلمة "إيديولوجية" ذات الأصل اليوناني، لأول مرة في العصر الحديث بمفهوم: «العلم الذي يدرس الأفكار بمعناها الواسع» 6، لتتطور مع الإيديولوجيين الموسوعيين باعتبارها: " منظومة منسقة ورؤى طبقة أو فئة اجتماعية محددة تتضمن معايير سلوكية... "7، وظل هذا المعنى العام سائدا حوالي نصف قرن ليتطور إلى مفهوم فلسفي 8 باعتبارها مجموعة من الآراء والقيم التي يؤمن بها الإنسان بما فيها الأفكار السياسية والقانونية والأخلاقية والفنية والدينية سواء بطريقة علمية أو غير علمية أي إما انعكاسا صادقا أو زائفا للواقع الاجتماعي 9، ليصل مفهوم "الإيديولوجية" مع بداية القرن العشرين إلى معناه السياسي الاجتماعي الصِّرف حينما احتدم الصراع بين الأفكار الرأسمالية والشيوعية، ومصطلح الإيديولوجية يقابله في اللغة العربية مصطلح المذهب وهو المنهج أو الطريقة أو المعتقد، إلا أن الاستعمال اللغوي المعاصر لكلمة مذهب أصبح أقرب إلى الدّين منه إلى السياسة، بينما الإيديولوجية أكثر ارتباطا بالسياسة10 ، وهذا الارتباط بين الإيديولوجية والسياسة، هو ما شجع لاستعماله بمعناها السياسي الاجتماعي كما حدده "باشلار": « الإيديولوجية هي جملة التّمثُّلات المصاحبة للعمل السياسي »11.

وهو ما أكده المفكر المغربي "عبد الله العروي":

« الإيديولوجية في الاستعمال اليومي مرادفة للسياسة، والسياسة هي التطبيق العملي للإيديولوجية وهي فكر عملي تعبوي بهدف الحفاظ على الواقع الاجتماعي كما هو، أو إلى تغييره...»12.

وتبناه معظم المؤرخين الجزائريين من بينهم "زوزو عبد الحميد" بقوله :

« الإيديولوجية هي جملة أفكار وتصورات لمفاهيم معينة لدى جمعية أو حزب من الأحزاب في شكل أهداف عقائدية لابد من بلوغها بواسطة مذهب ما »13.

يبدو أن هناك العديد من التعارف المنبثقة من رؤى ومدارس فكرية مختلفة، وهي تتفق كلها على أهمية دور الإيديولوجية في المجتمع، ونخلص أن الجامع المشترك بين مختلف هذه التعارف

" للإيديولوجية" بمفهومها الإيجابي أنها:« نظام منسق من الأفكار والرؤى يفسر موقف المثقف من واقع مجتمعه بالخصوص، ويؤدي إلى اعتماد نوع معين من السلوك العملي يُجَسِّم تلك الأفكار والرؤى»14.

فالإيديولوجية إذن تصور فكري كلي يشمل بطبيعته كامل أصناف الخطاب ومنها الخطاب الديني الإصلاحي بطبيعة الحال، وهي بناء فكري متماسك الجوانب يقوم على أمهات الأفكار القارة عند صاحبها، وهي التي تكون صرح هذا البناء، وتدور كلها حول ما يجب أن يكون لا ما هو كائن بالفعل،

ولها غاية نفعية قبل كل شيء بهدف السيطرة على الواقع المتدهور في نظره، والعمل على توجيهه وجهة معينة تجسم قيمه ومعتقداته وتصوره الخاص للإنسان والمجتمع.

ويطرح مفهوم الحداثة نفس الغموض والاختلاف 15وهي عموما ظاهرة ثقافية تسيطر على الفكر البشري خلال العصر الحديث، تتحدد زمنيا ومكانيا في أوروبا منذ القرن 16م إلى اليوم، وترتبط أساسا بتمسك الإنسان الأوروبي بالعلم والتكنولوجيا، وإيمانه المطلق بالتطور اللامحدود، وسيطرة مفاهيم فكرية جديدة مثل: العقلانية، التطور، الحرية، المعارف العلمية التجريبية...16.

فما هي عناصر الإيديولوجية؟ وما هي مظاهر الحداثة في تفكير " الأمير عبد القادر؟

لخص المؤرخ الجزائري " أبو القاسم سعد الله " إيديولوجية الأمير بقوله:

«...كان بطلا يرجع إلى الشعب، ويحس نبضاته، ويحتكم إلى القرآن والسنة وآثار السلف الصالح، ينفتح على الحضارة والعلم والعقل، ويستمد طموحه من الشرف والجهاد والوطنية...»17

انطلقت إيديولوجية الأمير أساسا كإيديولوجية إصلاحية، حيث ردد كثيرا على مسامع أتباعه وفي رسائله قوله المأثور: « أريد أن أصلح...إن هدفي الأساسي هو الإصلاح... »18

وقامت إيديولوجيته الإصلاحية على مجموعة من العناصر أهمها:

- مقدمة جوهرية مفادها أن الإسلام ينبوع المعرفة الكاملة بجميع ألوانها، وهو أساس المجتمع الفاضل، حيث أكد المؤرخ الفرنسي(Rinn Louis) قائلا: «...استطاع الأمير عبد القادر أن يؤثر في الأهالي باسم الإسلام...»+18

- لا انفصال بين الدين والسياسة.
- لا انقطاع بين العقيدة والعلم، حيث لا وجود لانفصال بين العقل الحر والدين، فالعقيدة الإسلامية لها من المرونة وشمولية النظرة ما يجعلها تتلاءم بسهولة مع مقتضيات العصر الجديد.

- تسخير الفكر الديني السلفي الجديد لتغيير الواقع المتأزم، حيث اتخذ من مسائل العقيدة الدينية وسيلة لتحقيق غاية إصلاح الأوضاع العامة، وهو ما يستجيب لغاية الفكر الإيديولوجي وطبيعته الخاصة، حيث صاغ تفكيره الديني في قالب إيديولوجية شاملة جاهزة للتطبيق قصد تجديد المجتمع الجزائري وتغييره جذريا في مختلف
المجالات:

أولا على مستوى التفكير النظري:

كانت المسألة الرئيسية التي شغلت الأمير عبد القادر هي إحياء الإسلام الصحيح وجعله عقيدة وسلوكا دينيا وهوية سياسية، على أساس أن الإسلام دين ودنيا، فحرص على توظيف العقيدة وجعلها ملائمة لمقتضيات العصر19، ولهذا حارب بعض الطرق الصوفية، وأرغم مريديها على الخضوع لدولته وليس لطريقته " القادرية " كما حصل مع " الطريقة التيجانية" في الوقت الذي تحالف وتعاون مع عدة طرق صوفية أخرى كالرحمانية مثلا، فالأمير وظف الطرقية لصالح المقاومة والجهاد وبناء مؤسسات الدولة19+.

ثانيا على مستوى بناه السياسية والمؤسساتية:

مثلت مقاومة الأمير عبد القادر نموذجا استثنائيا فيما يتعلق بظاهرة الثنائية الروحية الزمنية في قيادة المقاومات الشعبية حيث كان الأمير القائد الوحيد الذي نجح في الجمع بين الزعامتين الدينية والدنيوية، وتلقب ب « أمير المؤمنين »20 فأصبح بذلك القائد الروحي والسياسي والعسكري للمقاومة، وهذا كان نتيجة تلقائية لانتعاش الروح الجهادية التي جبل عليها الجزائريون عبر التاريخ، إلى جانب الفراغ السياسي الذي تركه انهيار مؤسسات الدولة الجزائرية مع بداية الاحتلال بسبب التفكك السياسي، وعجز النخبة السياسية -القليلة العدد والمعزولة عن المجتمع الريفي الشعبي- على تشكيل قيادة سياسية بديلة، وأسس الأمير برنامجه السياسي الموسوم ب: " وشائح الكتائب وزينة الجيش المحمدي الغالب " على ثلاثة أسس وهي: 21

1/ السمع والطاعة للأمير المفوض بالسلطة العليا والمركزية عن طريق البيعة الشعبية العامة.

2/ الثبات على الجهاد لإعلاء كلمة الله ومقاومة العدو دفاعا عن الوطن.

3/ اعتماد الشورى في تنظيم شؤون الدولة.

وعلى الرغم من نسبية الأوصاف السياسية والقانونية للنظام السياسي لدولة الأمير، فإنها كانت نموذجا للدولة الوطنية الحديثة الأولى، وهي ثمرة لتفويض شعبي، أكسبها شرعية دينية وسياسية، وأعطاها طابع جمهورية إسلامية تيوقراطية22، ويشرح الأمير الأمة السياسية فيما سماه بالديوان23، فيبرز لنا من خلال كل واقعة بمفردها مدى التباعد بين الضمير السياسي الوحدوي الذي كان يكافح من أجله، وسلوك التشتيت والتطاحن الذي كان سائدا من فوضى قبلية، وذهنيات إقطاعية، وخيانات وطنية24، ولهذا لم يكن المنشور السياسي الذي وزعه الأمير على القبائل مباشرة بعد بيعته مجرد خطاب سياسي حماسي للجهاد، بل تضمن مجموعة من المبادئ السياسية والأخلاقية التي اعتبرها عماد الإصلاح والتقدم، كدعوته للوحدة والاتحاد، وإقامة الحق والعدل والمساواة بين الجميع+24

ثالثا على مستوى العلاقات الاجتماعية والاقتصادية:

استهدفت إيديولوجية الأمير تحقيق ثورة اجتماعية، بعدما أعاد النظر في العلاقات الاجتماعية، فحارب كل مظاهر التمييز التقليدية، وألغى البناء القبلي الذي كان يمزق المجتمع الجزائري، وأرسى مكانه لبنة مجتمع جديد يرفض العصبية القبلية والطبقية، ويقوم على أساس العدل والمساواة في الحقوق والواجبات، يقول الكاتب الإنجليزي " هنري تشرشل" مؤرخ سيرة الأمير عبد القادر في هذا الصدد:

«... لقد كشف الأمير عبد القادر عن تفهمه لحاجة قومه في الارتقاء من عهد القبيلة والإقطاع إلى عهد التعايش الاجتماعي والالتزام نحو بعضهم ونحو الدولة...»25

وتضمنت إيديولوجية الأمير بعدا حضاريا قائما على تجديد الفكر والعمل السياسي مع تحريك همم أهل المغرب العربي داخل الجزائر وخارجها إلى الصمود في وجه العدو المستعمر بالتهيء عسكريا وسياسيا واقتصاديا وعلميا26.

وارتبطت إيديولوجية الأمير بالحداثة، حيث لم ينظر إلى حضارة أوروبا " موطن الحداثة " نظرة عدائية، بل انفتح على الحوار الجدي والعميق مع مدارسها الفكرية المختلفة وتجاربها الفلسفية المتنوعة، حيث أوضح الأمير في مذكراته ما أفرزته قضايا العصر في الجزائر من صراع حضاري وتناقضات داخلية ومحاولات الخروج من دائرة التخلف، في نفس الوقت الذي يرسم فيه الخطوط العريضة الأولى

للحلول المستقبلية في نطاق مشروع واسع للتفاهم مع الغرب بعد توصيل رسالة الإسلام له على أساس التسامح الديني الذي سيتطور إلى حوار الحضارات27.

واستجاب في تفكيره وممارساته الميدانية إلى مختلف شروط الحداثة بحيث:

- آمن بضرورة تحكيم العقل الحر في كل ما تمليه قاعدة المصلحة العليا في مختلف ميادين الحياة، حيث أكد الأمير في مختلف أدبياته على أهمية العقل، فقال في هذا الصدد: « ...إن خاصية الإنسان التي امتاز بها هو العقل الذي به يدرك العلوم ويعرف طريق الحق...العقل يدرك جميع الموجودات والمعدومات... »28، والتزم الأمير دائما ربط العقل بالعلم، حيث قال في كتابه: " ذكر العاقل وتنبيه الغافل: « ...اعلموا أن العقل منبع العلم وأساسه ومطلعه، والعلم يجري من العقل مجرى الثمر من الشجرة والنور من الشمس، والرؤية من العين، وكيف يخفى فضل العقل؟29.

- وأكد من جهة ثانية على التوفيق بين العقل والنص الشرعي، حيث قال:
«...فالذي يدعو الناس إلى التقليد المحض مع عزل العقل جاهل، والمكتفي بمجرد العقل عن العلوم الشرعية مغرور، فإياكم أن تكونوا أحد الفريقين، وكونوا جامعين بينهما... »30.

- كما ألح على اعتماد العلوم الصحيحة وتشجيع المعارف العلمية الجديدة، معتبرا الروح العلمية منبع الحداثة الحقيقية في التفكير الإنساني المعاصر.

- ورفض الذهنية الأسطورية، ونبذ المطلق والغيبي، حيث لم يقتصر وعيه بمختلف أبعاد الصراع الحضاري مع الاستعمار الفرنسي على البعد العقائدي الأخلاقي المتمثل في ضرورة إصلاح العقيدة الدينية بتفكير دوغماتي، بل بتصور واقعي أخذ على عاتقه مهمة معالجة قضايا الإنسان عامة في الواقع الشائك، فعمل على فتح باب الاجتهاد ومراعاة مصلحة منفعة الإسلام والمسلمين، وعدم التقليد الأعمى لخلق روح حركية في الشريعة الإسلامية تسمح لها بمواكبة العصر.

- وسلم بالتقدم واتجاهه المتصاعد في الحضارة المعاصرة، وعمل على تحقيقه فعلا وممارسة في المجتمع الجزائري والعربي الإسلامي، حيث كان الأمير صاحب مشروع نهضوي حقيقي صاغه بطريقة إمام في الشريعة وإمام في التصوف، عمل على الأخذ بأسباب التطور العلمي، ومحاكاة العالم الخارجي من دون خوف بصفته " أمير المؤمنين " وحاكما شرعيا لكل الجزائريين، وهذه جملة من الأفكار الحداثية التي استقاها الأمير من صراعاته وتفاعله كجسر للتقارب بين الغرب المسيحي رائد الحداثة، وبين الشرق الإسلامي في أزهى عصور الحضارة العربية الإسلامية، ومن أهم معالم الحداثة في تفكير الأمير وممارساته:31

1) الاهتمام بالعلم والعلماء، بتوقير العلماء وإزالة كل العوائق التي كانت أمامهم، إذ شجع على العلم والتعلم بتخصيص رواتب للمعلمين والقضاة والمفتين، ورفع الظلم عليهم، وإشراكهم في الحكم والتسيير.
2) نبه في كتبه ورسائله – بحذر – إلى أهمية الانفتاح العلمي والفكري على العالم الجديد.
3) بين ومارس أهمية الإسهام الإسلامي في الحوار الإنساني على أساس التسامح الديني.

عموما ينسجم تفكير الأمير عبد القادر من حيث قواعده العامة ومنطقه الداخلي مع معطيات الحداثة وشروطها بفضل انطلاقه أساسا من إيمانه المطلق بأن العلاقة بين الحضارة الإسلامية والحضارة الأوروبية علاقة تواصل وتكامل.

أصبحت إيديولوجية الأمير بفضل ارتباطها بالحداثة قيمة خالدة، حيث لم تكن فقط إيديولوجية تحرر وطنية أصيلة مستمرة كانت تهدف إلى رفض ومقاومة الاستعمار عامة، وغزوه الثقافي خاصة وتوحيد البلاد اعتمادا على العامل الديني، ورجوعا إلى تقاليد السلف الصالح، بل إيديولوجية ثورية تجديدية تنظر إلى المستقبل، وتقدم بديلا للأوضاع العامة التي أدت إلى الاحتلال، وهي إيديولوجية قابلة للإثراء في مواجهة الإيديولوجيات العالمية، يمكن الجزم أنه كان تثمينها وإثراؤها كفيلا بمنع بروز تيارات سلفية محافظة متزمتة عنيفة وغريبة عن المجتمع الجزائري والإسلامي، وأصبحت إيديولوجية الأمير تفرض نفسها كضرورة يجب تثمينها لأنها عبارة عن برنامج مستقبل يأخذ بالحسبان ضرورات الحياة المعاصرة ووسائلها المتجددة، وجوانب الحياة الروحية التي تبقي على الشخصية وتحفظها من المسخ، والتطلع إلى المستقبل بالعدة العلمية الكافية لفرض الوجود.

أعتقد مخلصا أن تفكير الأمير عبد القادر يمثل إيديولوجية إسلامية إصلاحية وثورية في نفس الوقت، إيديولوجية حديثة جامعة بين الخصال الأخلاقية الإنسانية الحميدة التي تمليها الشريعة الإسلامية السمحاء وبين الرقي والتقدم العلمي والحضاري الإنساني المعاصر، إيديولوجية ثرية الآفاق يمكن إثراؤها لتكون جاهزة للمساهمة في التقدم وضمان التواصل الحضاري، ولهذا ليس غريبا أن يكون فكر الأمير الوطني التحرري وممارساته الإنسانية قد مهدت لظهور مفهوم حقوق الإنسان الروحية والنفسية الدولية، وفكرة حوار الحضارات في زمن صراع الحضارات.

الإحالات:

(1) مؤلفات كثيرة نذكر منها على سبيل المثال لا الحصر:
العربية: أباظة (نزار)، الأمير عبد القادر العالم المجاهد، ط1، دار الفكر المعاصر، دمشق 1994، ابن التهامي (الحاج مصطفى)، سيرة الأمير عبد القادر وجهاده، تحقيق وتعليق يحيى بوعزيز، ط1، دار الغرب الإسلامي، بيروت 1995،
الأجنبية: تشرشل (شارل هنري)، حياة الأمير عبد القادر، ترجمة أبو القاسم سعد الله، ط3، المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر 1982 إيتيان (برونو)، عبد القادر الجزائري، ترجمة ميشيل خوري، ط2، المؤسسة الوطنية للنشر والاتصال، الجزائر 2001

(2) المراكشي (محمد صالح)، تفكير محمد رشيد رضا من خلال مجلة المنار(1935-1898)، المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر1985، ص. ص: 93-97

(3) حربي(محمد)، « الثورة الجزائرية – سنوات المخاض – ، ترجمة عياد صالح المثلولي ، - سلسلة صاد المؤسسة الوطنية للفنون المطبعية ، الجزائر 1994 ، ص :106 .

(4) بومالي(أحسن)، « إستراتيجية الثورة في مرحلتها الأولى 1954-1956 »، منشورات المتحف الوطني للمجاهد- الجزائر بدون تاريخ - ص 27-28 .

(5) خلدون(بشير)، « ما هي الإيديولوجيا ؟ »، دورية ملتقى الإعلام والإيديولوجية بنادي الصحافة بالجزائر في: 12-1984/05/13 ،ص: 08

(6) ربيع(محمد محمود)، « الإيديولوجيات السياسية المعاصرة »، شركة كاظم للنشر والتوزيع، الكويت 1979، المقدمة، ص: 10

(7) سبيلا(محمد)، « الإيديولوجية نحو نظرة متكاملة »، المركز الثقافي العربي، ط: 1، بيروت 1998، ص: 188

(8) عجمان(عزة)، « الإيديولوجية الثقافية والإعلام »، الوكالة العربية السورية للأنباء ، دمشق بدون تاريخ ، ص. ص:10 – 12

(9) عمراني (عبد المجيد)، محاضرات في تاريخ الفكر الفلسفي والسياسي، منشورات الحبر، الجزائر 2008، ص: 154

(10) صليبيا(جميل)، « المعجم الفلسفي »، الجزء 2 ، دار المشرق العربي، بيروت بدون تاريخ ، ص :361

(11) Bachler (Jean), « Qu’est-ce que l’idéologie ? – C. Idées – N° : 345 Gallimard- Paris 1976 , p : 21

(12) العروي (عبد الله)، « مفهوم الإيديولوجيا »، المركز الثقافي العربي ، الدار البيضاء، المغرب، ص: 6 .